المحاضرة04:قضية الالتزام في الشعر العربي الحديث والمعاصر.

تمهيد:

إن الواقع المحيط بالإنسان متغير متجدد، لكنه غير مكتمل، يحتاج إلى العمل الإنساني، وهذا الإنسان ذاته دائم البحث عن الواقع الأفضل، دائم التبرم والشكوى من النقص، يصطدم بالواقع من جهتين، جهة بحثه عن الكمال ورفضه لنقص الواقع، وجهة نقصه التي يعي من خلالها أنه لن يكف لحظة عن البحث عن المثال، لسبب واحد هو أنه لن يعثر عليه، ولن يمسك به، لكنه محكوم عليه اختبارا، بهذا البحث وهذا الشغف[i].

وإذا كانت صلة الإنسان بالواقع، هي هذه الصلة الثائرة المتفاعلة الدرامية، فإن فكرة الالتزام في الأدب فكرة حديثة، وهي وليدة عصرنا لم يعرفها النظر النقدي في العصور الماضية، والواقع أن مفهوم الالتزام قد ارتبط إلى حد بعيد بمفهوم الأدب نفسه، ومدى علاقته بالحياة، وبالدور الذي يقوم به الأدب في توجيه هذه الحياة

لقد نشأت فكرة الالتزام في العصور الحديثة نتيجة لاحتكاك الأديب بمشكلات الحياة التي يعيشها، وإدراكه لخطورة الدور الذي يقوم به إزاء هذه المشكلات؛ ومن ثم تحدد مفهوم الأدب منذ وقت مبكر في العصر الحديث بأنه "نقد للحياة" أو "تفسير لها"، وكان ذلك معناه ضرورة احتكاك الأديب بمشكلات عصره وقضاياه، حتى يتمكن من أن يجعل من قوة التعبير الفني وسيلة فعالة في تنبيه النفوس إلى ما هي رازحة فيه، وتوعيتها بواقعها ومصيرها[ii].

ومن هنا يتوحد الكيانان "الشعر والشاعر" في الماهية والغاية، من منطلق البحث عن المثال، والاكتمال من خلال تصوير المثال تصويرا جماليا في التجربة الشعرية يندفع الشعراء إلى التفاعل مع واقعهم، فهم يقدمون رؤاهم المثالية في التجربة الشعرية، وينادون بإحلال المثال محل الواقع البشري الناقص.[iii] ، وبهذا نستطيع القول إن الشعر خاصة والإبداع عامة ثورة «لا بكونه يتحدث عن قضايا ثورية، بل بكونه يحمل رؤية جديدة بلغة جديدة»[iv]، ويكون الشعر في هذه الحالة هو «الكلام ضد الكلام».[v]

أولا - مفهوم الالتزام.

الالتزام commitment في أصله ومعناه مصطلح فلسفي يعني «اعتناق وجهة نظر في الحياة يدافع عنها الفيلسوف، ويدلل عليها بكل الوسائل الفكرية والجدلية التي يحوزها»،[vi] ومع ذلك نجد أن المصطلح أكثر ما يكون وضوحا في ميدان الأدب، حيث يعني مشاركة الأديب في شؤون عصره ومجتمعه، ولا أن تكون هذه المشاركة فعالة ونابعة من وعي تام، وأن تكون له رسالة وغاية، أي أن ثمة علاقة تفاعل بالتأثير والتأثر قائمة بينه وبين مجتمعه.

1- لغة:

ورد في لسان العرب «لزم الشيء يلزمه والتزمه وألزمه إياه فالتزمه»،[vii] والالتزام هو التعلق وعدم المفارقة ويعني كذلك: «التزم: بمعنى لازمه، وفلانا اعتنقه، والعمل والمال أوجبه على نفسه، والقرية أو العشيرة أو غيرهما، ضمنها بمال معين»[viii]، أي إن الالتزام يعني الاعتناق والترابط والتعاقد.

2- اصطلاحا:

ظهر مصطلح الالتزام في الشعر العربي الحديث مقترنا بظهور الثورات العربية التحررية،ولا يقتصر الالتزام كظاهرة أدبية على أمة دون أخرى، إذ إن «فكرة الالتزام معروفة في الآداب الأوروبية وكثر حولها النقاش في أدبنا العربي الحديث والمقصود من هذه المسألة هو أن يكون الاتصال وثيقا بين الأدب وبين قضايا مجتمعه.»[ix]

وقد يعني الالتزام مشاركة الشاعر أو الأديب الناس همومهم الاجتماعية والسياسية ومواقفهم الوطنية، والوقوف بحزم لمواجهة ما يتطلبه ذلك، إلى حد إنكار الذات في سبيل ما التزم به الشاعر أو الأديب، ثم إن الالتزام يقوم في الدرجة الأولى على «الموقف الذي يتخذه المفكر أو الأديب أو الفنان فيها، وهذا الموقف يقتضي صراحة ووضوحا وإخلاصا وصدقا واستعدادا من المفكر، لأن يحافظ على التزامه دائما وتحمل كامل التبعة التي تترتب على هذا الالتزام.»[x]

أما سارتر فقد عرف الأدب الملتزم قائلا: «مما لاريب فيه أن الأثر المكتوب واقعة اجتماعية ولابد أن يكون الكاتب مقتنعا به عمق اقتناع، حتى قبل أن يتناول القلم، إن عليه بالفعل أن يشعر بمدى مسؤوليته، وهو مسؤول عن كل شيء، عن الحروب الخاسرة أو الرابحة، عن التمرد والقمع، إنه متواطئ مع المضطهدين إذا لم يكن الحليف الطبيعي للمضطهدين»[xi]، وبالتالي فإن سارتر يشير إلى العلاقة الوطيدة بين الأديب والمجتمع الذي يعيش فيه، وكيف تحدد مدى التزام الأديب.

وأما الأدب الملتزم عند محمد مصايف فهو «ما ارتبط بقضايا الطبقة العاملة في المجتمع، وأما الأديب الملتزم فعليه أن يكون لسان طبقة معينة وإيديولوجية معينة»[xii]، بمعنى أن الأديب الملتزم يؤدي رسالة عن مجتمعه، وهذه الرسالة لابد أن تعكس حال هذا المجتمع وإيديولوجيته.

في حين يرى أحمد طالب أن «الأدب الملتزم هو الأدب الذي يسعى إلى توجيه الجماهير إلى واقع اجتماعي وأدبي أفضل»[xiii]، وهو بهذا يركز على هدف الالتزام في الكشف عن الواقع ومحاولة تغييره، بما يتطابق مع حال الجماهير وظروفها الاجتماعية والسياسية والثقافية... وغيرها.

ثانيا- نماذج عن الالتزام من الشعر العربي الحديث.

لقد كان الشعر قديما وحديثا في خدمة هذه القضية أو تلك، حتى ظهر في العصر الحديث شعراء ملتزمين بقضايا شعوبهم ومجتمعاتهم، وظهر بذلك مصطلح "الالتزام في الشعر"، خاصة بعد أن بشرت الثورات التحررية على اختلاف مشاربها، المواطن العربي بانقلاب جذري، سيمس حياته في جوانبها المتعددة بمجرد أن تتخلص أقطار الوطن العربي الكبير من براثن الاستدمار الظالم الذي استنزف خيراتها من المحيط إلى الخليج.

ولكن هذا المواطن العربي وقف في نهاية المطاف، وقد استقلت معظم البلدان العربية على واقع مأساوي لا يقل بؤسه عن بؤس المرحلة الاستعمارية،[xiv] فكان لابد من ظهور نخبة من الشعراء الملتزمين الذين حملوا على كاهلهم قضايا مجتمعهم، منطلقين من ضرورة التغيير الجذري لأحوالهم الاجتماعية والسياسية والثقافية... وغيرها، عن طريق شعرهم الذي ألهب الكبير والصغير في مشارق الأرض ومغاربها، حيث نقرأ في شعر الشاعر **مصطفى الغلاينيي*** موضوعات مختلفة يستعرض فيها خطورة الظلم واشتداده وأنه لابد أن يزول يوما، وقد جمع في قصيدته "طال الرقاد" جملة من هذه المواقف، يقول:[xv]

بني وطني، طال الرقاد فشردوا بسرح الكرى، وامضوا بعزم مصمم
ألستم ترون الشر جاوز حده ومازال يرمينا بخطب عرمرم
إذا قام منا قائم برحت به غيابة سجن معضل الداء مظلم

يستنهض الشاعر همم العرب جميعا، ويدعوهم إلى الانتفاضة والثورة والمواجهة، وقد جاوز الشر حده وهم متقاعسون، رغم قدرتهم على رفع هذا الظلم وإبعاده، وهذه الصورة التحريضية نقرؤها عند **البياتي** حين يصف الموقف الثوري لشعبه، قائلا:[xvi]

ياشعبي السجين
يا رافع الجبين
للشمس وهي تطرق الأبواب
يا صانع اللهيب

وبالموازاة يدعو الشاعر **"محمود درويش"** الشعب إلى الثورة والتصدي للمؤامرات التي تحاك ضده، فيقول:[xvii]

فمن عزمي
ومن عزمك
ومن لحمي

ومن لحمك

نعبر شارع المستقبل الصاعد

إن هذه اللغة الثورية المحرضة تصدر عن شاعر عرف بالتزامه القومي والعربي ومساندته لقضيته التي لم يكن بمعزل عنها منذ نشأته، حيث «نذر نفسه ليكون شاعر الأرض الذي يمثل العودة إلى فلسطين»[xviii]، وهو بهذا يتقاطع مع شاعر الثورة الجزائرية **"مفدي زكريا"** الذي يرفع تحديه والتزامه من سجن بربروس، قائلا[xix]:

سيان عندي مفتوح ومنغلق — يا سجن بابك، أم شدت به الحلق

أم السياط بها الجلاد يلهبني — أم خازن النار، يكويني فاصطفق

سري عظيم فلا التعذيب يسمح لي — نطقا، ورب ضعاف دون ذا نطقوا

يا سجن ما أنت لا أخشاك، تعرفني — من يحذق البحر، لا يحدق به الغرق

أنام ملء عيوني غبطة ورضى — على صياصيك، لا هم ولا قلق

والمشكلة الفلسطينية تجد الوجه الأصعب لها في السياسة الإسرائيلية القاضية بتفرد إسرائيل في فلسطين بأساليب العنف المختلفة، ولقد وقع هذا العنف على كثير من شعراء الأرض المحتلة،[xx] مما دفعهم إلى الالتزام بقضيتهم والذود والدفاع عنها، يقول **سميح القاسم** مخاطبا فلسطين:[xxi]

جعلوا جرحي دواة، ولذا،

فأنا أكتب شعري بشظية

وأغني للسلام...

من عشرين عام

وأنا أؤسم عينيك على جدران سجني

وإذا حال الظلام

بين عيني وعينيك

بتراءى وجهك المعبود

في وهمي

فأبكي وأغني

لقد أحب سميح القاسم وطنه، لأنه أصله وموروثه الحقيقي، وهو شاعر الصمود والمقاومة بلا منازع، تلتزم قصائده بقضايا شعبه، لأنه يعبر فيها عن الحلم الفلسطيني، وهو الحلم والتفاؤل بالمستقبل الذي نقرؤه في شعر **أحمد الجوماري**، وخاصة في قصيدة "الوصية الأخيرة"، حين يقول:[xxii]

صديقتي هنا... رغم الجليد والسدود

ووحشة الدروب في الظلام

وغضبة السؤال في الشفاه

رغم العراء والسياط والغربان واللصوص
من شعلة اللهيب والأحقاد في العيون
أرى انعتاقا يحطم الأبعاد والحدود
ويغرس الضياء في القلوب وينثر الربيع في الدروب.

خاتمة:

خلاصة القول إن شعر الالتزام في الشعر العربي الحديث متنوع في انتمائه إلى الاتجاهات الشعرية المختلفة فهو شعر يخدم التجربة الحية ويبحث في شعاب القضايا العربية متنقلا في كل قطر عربي، متسربا إلى عمق المجتمع ليعكس مشكلاته ويحمل قضاياه، ويعمل على حل معضلاته غير آبه بالمآسي التي تعترضه والمواجهة التي تصادفه.